ولأنه مليءٌ من الصراط المستقيم فـ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] هداية أصيلة بالكتاب: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ . . . وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] وأخرى هامشية بسنته القاطعة: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٣] ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[٤].

فهو ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في شخصه ورسالته، في الصورة الإنسانية، وصراط العبودية والإيمان، والاعتصام بالله، وفي هدي كتاب الله، وفي رسالته، وإسلامه، وتوحيده لله، سبعة كاملة بأفضل درجاتها، منقطعة النظير بين كل بشير ونذير في ملإ العالمين من الملائكة والجنة والناس أجمعين[٥].

﴿إِنَّكَ . . . عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ في بعدين فإن لم يستقم البعد الأوّل من الصراط لم يستقم الثاني: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٦] فقد كان الرسول على صراط الإنسانية المستقيم، وصراط العبودية حتى اصطفاه الله على صراط مستقيم من الوحي والرسالة والنبوة بأكمل درجاتها[٧].

وقد يعني ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ - إلى جانب قرآن محمد - محمد القرآن لأنه تجسيد لحكمة القرآن وأحكامه ومعارفه، وقد كان خُلُقه القرآن[٨] فهو الثقلان مهما كان القرآن أكبر الثقلين، فهو عقله وقلبه القرآن الحكيم بما فيها

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٥) راجع تفسير الآية ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ج ١ الفرقان.
(٦) سورة يونس، الآية: ٣٥.
(٧) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٤] على الأول خبر ثان وعلى الثاني متعلق بالمرسلين.
(٨) وكما سئل ابن عباس ما كان خلق النبي ﷺ قال: كان خلقه القرآن.

من تفاصيل المعارف الإلهية، ما يحتاجه ويحتاجه العالمون أجمعون إلى يوم الدين.

وقد يتأيّد بما يأتي من إجابة المرسلين: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾[١] حيث استندوا لإثبات رسالتهم بظاهر التربية الخاصة الرسالية فيهم.

وأوضح من ذلك آية ثانية في يس: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾[٢] فالرسول ﷺ هو القرآن المبين كما القرآن مبين، بل هو أبين لأنه يجسِّده بكل مظاهره، ويفسره بسنته.

فالقرآن دون الرسول كما الرسول دون القرآن جناح واحد في الدعوة ينقص ثانية، المحلِّق بهما في أجواء الهداية الكاملة.

﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾:

ولأنه تنزيل العزيز فهو عزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾[٣] عزيز لا يُغلب بنسخ أو تحريف، أو تحوير وتجديف، وفي ﴿تَنزِيلَ﴾ مصدراً منصوباً إشارتان إلى عظم موقف القرآن، فلا يوصف بالتنزيل إذ هو فوق الوصف الذي ليس لزاماً لموصوفه[٤]، والتنزيل لزام القرآن وكيانه، ليس له وراء ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ موقف حتى يوصف به، إذاً فالوصف هنا هو الموصوف، والموصوف هو الوصف دون فارق!

ثم المصدر دليل ثان على ذلك الكيان المجيد للقرآن، إنه من عزة الله ورحمته المنزلة على خلقه، فلا يحمل كياناً إلَّا ربوبياً في أعلى مظاهره.

---

(١) سورة يس، الآية: ١٦.
(٢) سورة يس، الآية: ٦٩.
(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.
(٤) فإن تنزيل منصوب إما على الاختصاص أو على المدح أو أنه مفعول أعني.

وقد يعني ﴿تَنزِيلَ﴾ نبي القرآن مع القرآن فإنه منْزَل ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾[١] ومنزَّل حيث الدرجات المتتالية منزلَّة عليه من العزيز الحكيم منذ كان فطيماً حتى بلوغه وحتى رسالته وإلى قضاء نحبه.

فمحمد القرآن وقرآن محمد هما تنزيل العزيز الرحيم، كما هما على صراط مستقيم، وكما يحملان مع بعض، هذه الرسالة القمة دون فكاك.

ولأنه تنزيل الرحيم فهو كتاب رحيم يعم برحمته وكما رسوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

كتابٌ عزيزٌ رحيم، تنزيل العزيز الرحيم على رسول عزيز رحيم، عزة في التنذير ورحمة في التبشير وفي كل ما يتطلب عزة ورحمة.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾:

علةٌ غائبة للإرسال والتنزيل.

صحيح أن القرآن لإنذار الناس أجمعين، من أنذر آباءهم وأنفسهم أم لم ينذروا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٣] ولا الناس فقط بل العالمين: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٤] ولكن المحور الأوَّل لإنذاره ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ فإنهم أصلد وأصلب، فغيرهم أقوى تأثراً وأعبد ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٥] لُدّاً في عروبتهم، ولُداً إذ لم ينذروا من قبل ولا آباءهم، أم لم ينذروا مهما أنذر آباءهم ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٩.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٥) سورة مريم، الآية: ٩٧.

قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[١] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾[٣].

فالذين أنذروا، هم وآباؤهم، ثم الذين أنذر آباؤهم دونهم، ثم من أنذروا هم دون آبائهم، ثم مَن لم يُنذروا هم ولا آباؤهم، هم كلهم من العالمين تشملهم آية الفرقان، ولكنما العرب الذين لم يُنذروا، هم ولا آباؤهم، فيهم عراقيل ثلاثة وِجاه إنذار القرآن، وإذا كانت عزة القرآن ورحمته لحد تؤثر في هؤلاء بعراقيلهم الثلاثة، فبأحرى تأثيرها فيمن دونهم عرقلةً، فالتحلل عن القوميات يعبِّد، وإنذار الآباء يعبِّد، وإنذارهم أنفسهم يعبِّد، تعبيدات ثلاث لتقبُّل الإنذار على سهولة ويسر.

ولأن هذه الغفلة ليست لحد يسقط معها التكليف، فواجب الإنذار يوجَّه إليهم على صعوباته وعراقيله.

فثالوث الغفلة التامة، الطامة أنفسهم، الناتجة عن هذه الثلاث، تجعل منهم معاندين متعنتين لحدٍّ:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾:

لا يؤمنون لأنهم غافلون ثم ولا يريدون الهدى فهم قاصرون ومقصرون، فقد حقت على أكثرهم كلمة العذاب، والقلة الباقية بين قاصر مطلق دون تقصير، وبين من يؤمن رغم الغفلة الحاكمة، ويا لهذه القلة الثانية من يراعة ونصوع الإيمان إذ يجتازون ثالوث الغفلة إلى نور الانتباه:

أترى ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تفريع على حقِّ القول على الأكثرية العاتية؟ وهو جبر وتسيير على عدم الإيمان!

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٦.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٤.

أم إن حق القول من مخلَّفات ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء إجابة عن سؤال السبب في حق القول، فلأنهم بغفلتهم يتعنّتون فلا يؤمنون ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] لا تعني إلَّا حق الكلمة على الذين يعلم الله أنهم لا يؤمنون تخيراً، فعلمه بأنهم لا يؤمنون حتى الموت حقق عليهم كلمة العذاب قبل الموت، وليس العلم علة العصيان، بل هو كشف سابق عن العصيان! كما الكشف المقارن أو اللَّاحق، فإنها سواءٌ أن ليس العلم علة، بل هو انكشاف عما حصل أو يحصل أو هو حاصل بأسبابه، إنْ مخيراً فمخيراً وإنْ مسيراً فمسيراً.

فـ ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ لأنهم لا يؤمنون، أم حيث حق القول على أكثرهم، لأن الله يعلم أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وحق القول هنا كاشف أنهم لا يؤمنون.

وكلما كثرت وتتابعت عوامل الغفلة تثاقلت الذكرى بطبيعة الحال، دون إنسداد مطلق لطريق الهدى، حيث الفطرة التي فطر الله الناس عليها تظلُّ حجة دائبة تطارد العوامل الخارجية والدخيلة، وكثير هؤلاء الذين تؤثر عليهم تلكم العوامل الجارفة، وقليل هؤلاء الذين يطاردونها ويتخلصون عن المعركة، والغفلة ما لم تكن عامدة لا تحقِّق القول على أصحابها، فمن لم يُنذروا من قبل، ولا آباؤهم، فهم في غفلة قاصرة، فإذا أنذروا هم أنفسهم بمثل هذه الرسالة السامية القرآنية بحجتها البالغة، التي تزيل كل غفوة وغفلة، ثم لم ينتبهوا، فهم إذاً في غفلة عامدة، ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إذاً له بعدان قصوراً وتقصيراً، وليس حق القول إلَّا على أكثرهم وهم المقصرون في غفلتهم بعدما أنذروا، وأما القاصرون وبأحرى المؤمنون، فهم القلة الناجية التي لم تحق عليها القول، إلَّا مغفرة ورضواناً أم وإيماناً!.

(١) سورة يونس، الآية: ٩٦.

و﴿ٱلْقَوْلُ﴾ كما في سائر القرآن هو وعد العذاب ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١) (٢).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾:

ولماذا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ لأنهم بما لم يُنذروا ولا آباؤهم غافلون، ولأنهم لمَّا أنذروا ثبتوا على الغفلة عامدين، فقد تجاوبت العوامل الخارجية: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قصوراً، والعوامل الداخلية تقصيراً، فتعمَّقت الغفلة فيهم وتحمَّقت لحد أصبحوا غفلة على غفلة ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٣) كما زاغوا، ومثلهم في زَيغهم عن الحق وعماهم عن مشاهدة الحق، واستكبارهم على شاهد الحق ﴿إِنَّا جَعَلْنَا. . .﴾.

وعلَّ الأول تمثيل عن الغفلة الأنفسية، والثاني هي الآفاقية، فلم يتبين لهم أنه الحق بما زاغوا عن الآيتين:

فهب أنهم لم ينذروا ولا آباؤهم، فلماذا لم ينظروا إلى الآفاق حتى يعتبروا، ولماذا لم ينظروا إلى أنفسهم حتى يتبصروا؟ فلما ركزت في أنفسهم عوامل الغفلة العامدة أنساهم الله أنفسهم ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ وأعماهم عن آفاقهم فهم لا يبصرون ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(٤) ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾(٥).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٢) ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصافات: ٣٠-٣١] ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨].

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٥) سورة طه، الآية: ١٢٦.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ بجمعية صفات الجلال الانتقام يوم الدنيا ﴿فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ وليس على أعناقهم، وإنما «في» المشيرة إلى أن ﴿أَغْلَٰلًا﴾ جعلت دواخل أعناقهم، وتملكُه ذواتهم فلا يملكون فكَّها، ثم ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أغلالاً متراكبة طول الأعناق إلى الأذقان، فلا مجال لهم في حِراكها على أية حال ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: رافعون رؤوسهم كالمتأبِّي، كبعير قامح، يرفع رأسه تأنفاً فلا يشرب ماءً ولا يأكل كلاءً، وكأنهم شُبِّهوا - في تكارههم للإيمان وتضايق صدورهم لسماع القرآن - بقوم عوقبوا فجذبت أذقانهم بالأغلال إلى صدورهم، مضمومة إليها أيمانهم، ثم رفعت رؤوسهم ليكون ذلك أشد لإيلامهم وأبلغ في عذابهم!

هؤلاء الحماقى الطغاة الغافلون البغاة أصبحوا رافعي الرؤوس كأنهم لا يملكون انحناءً وإنْ لصالح أنفسهم، متأبِّين عن شربة ماء الحياة، ولا يملكون النظر إلى أنفسهم ليدركوا آياتها، ويلمسوا حاجاتها، حارمين أنفسهم عن النظر إليها وإلى آيات الله فيها، ولَيْتهَم لم يُحرموا النظر إلى آياته في الآفاق، كي يتبصروا بها ويرجعوا إلى أنفسهم منتبهين، ولكن:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾:

إنهم سُدَّت عليهم منافذ الرؤية للآفاق كما سُدَّت عليهم أنفسهم، و﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ . . . وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تشمل الجهات كلها حيث ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ هي غشية تشملهم دون إبقاء، لم تُبق لهم منفذاً من منافذ الإدراك للآفاق سمعاً ولا بصراً ولا حساً، عقلاً ولا قلباً ولا فطرة ولا أية نافذة قلباً أو قالباً[1] ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(١) نور الثقلين ٤: ٣٧٦ ج ١٩ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ . . .﴾ [يس: ٩] الهدى أخذ الله سمعهم وأبصارهم وقلوبهم وأعمالهم =

ذلك الإقماح وهذا السد ليس على ظاهر أبدانهم، بل على باطن قلوبهم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ . . .﴾[1]. توصيفاً لما كان عليه هؤلاء عند سماع القرآن من تنكيس أذقانهم، ولَيٍّ أعناقهم، ذهاباً عن الرشد، واستكباراً عن الانقياد للحق، وضيق صدور بما يرد عليهم من مواقع البيان وقوارع القرآن.

وعلَّ ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ تعني - فيما عنت - مستقبل الحياة وهي الأخرى، «وما خلفهم» تعني الحياة الأولى، فهم مغشيُّون عن النظر إلى الحياتين وصالحهما لأنفسهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

قد يُحرم الإنسان إبصارَه إلى آيات آفاقية، ويُمنح آيات أنفسية، باطنة من الروح على فطرته وعقله، وظاهرة من جسمه بأعضائه، وقد يُحرم آيات أنفسية ويمنح الآفاقية، فله مجال على أية حال أن يتبصَّر، فإذا حُرم الإبصار إلى جمعي الآيات ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وصولاً إلى حقائق المبصرات مبدءاً ومعاداً، فيجمدون عليها دون تبصر، «فمن أبصر بها بصَّرته ومن أبصر إليها أعمته» وأما إذا اهتدى إليهما ككل فقد هدي إلى صراط مستقيم.

= عن الهدى، نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من أهل بيته وذلك أن النبي ﷺ قام يصلي وقد حلف أبو جهل لعنه الله لئن رآه يصلي ليدمغه فجاءه ومعه حجر والنبي ﷺ قائم يصلي فجعل كلما رفع الحجر ليرميه أثبت الله ﷻ يده إلى عنقه ولا يدور الحجر بيده فلما رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده ثم قام رجل آخر وهو رهطه أيضاً فقال: أنا أقتله فلما دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول الله ﷺ فأرعب فرجع إلى أصحابه فقال: حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه فخفت أن أتقدم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

فيا ويلاه إن وصلت حال الإنسان إلى هذه الدركات و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[١] حيث لا يبقى له منفذ إلى النور، مُقمحٌ في ذاته، مسدود مغشي عن آفاقه ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

ولقد حصلت شعبة من هذه التعمية على أبي جهل لما أراد أن يدمغ النبي وهو يصلي[٢] وعلى قريش لما اجتمعوا ببابه ينتظرون خروجه ليؤذوه[٣] وكذلك على الذين مكروا به ﷺ - وهو منهم - فمكر الله والله خير الماكرين إذ قرأ عليهم آية السد فسدّ عليهم فهم لا يبصرون[٤].

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾:

(١) سورة الحج، الآية: ١٠.

(٢) مر سابقاً في هامش (١) صفحة ١٧.

(٣) كما في الدر المنثور ٥: ٢٥٩ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمعت قريش بباب النبي ﷺ ينتظرون خروجه ليؤذوه فشق ذلك عليه فأتاه جبرائيل بسورة يس وأمره بالخروج عليهم فأخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها ويذر التراب على رؤوسهم فما رأوه حتى جاز فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب وجاء بعضهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: ننتظر محمداً فقال: لقد رأيته داخلاً المسجد قالوا: قوموا فقد سحركم.

(٤) نور الثقلين ٤: ٣٧٧ ج ٢١ القمي في بيان خروج النبي ﷺ من بيته إلى الغار وفيه: وأمر رسول الله ﷺ أن يفرش له ففرش له فقال لعلي بن أبي طالب ﷺ: افدني بنفسك قال: نعم يا رسول لله، قال: يا علي! نم على فراشي والتحف ببردتي فنام علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ والتحف ببردته وقد جاء جبرائيل وأخذ بيد رسول الله ﷺ فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم ﴿وَجَعَلْنَا...﴾ [يس: ٩] وفي كتاب الاحتجاج روي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليهم السلام قال: إن يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال لأمير المؤمنين عليه السلام فإن إبراهيم عليه السلام حجب عن نمرود بحجب ثلاثة؟ قال علي عليه السلام: لقد كان كذلك ومحمد ﷺ حجب عمن أراد قتله بحجب خمسة ثلاثة بثلاثة واثنان فضل، فإن الله عز وجل وهو يصف محمداً قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩] فهذا الحجاب الأول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩] فهذا الحجاب الثاني ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] فهذا الحجاب الثالث ثم قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فهذا الحجاب الرابع ثم قال ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨] فهذه حجب خمسة.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إذ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لا عليك، فإن عليك الإنذار كما على الرسل ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾[١] ولا يعني ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلَّا بيان الواقع وتسلية لخاطر النبي الأقدس لكيلا يحزن عليهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾[٢].

ليس للمنذر - إرشاداً أو أمراً ونهياً - أن يترك إنذاره بحجة أنهم لا يؤمنون، فعلَّهم يؤمنون رغم حسابك حيث الواقع قد يتخلف عن العلم غير المحيط بالواقع، وحتى إذا كان قطعاً، أم وتبين أن الإنذار كان عليهم سواءً لم يسقط وجوبه عن المنذَرين، إتماماً للحجة وإيضاحاً للمحجة.

وواقع اللّاإيمان من هؤلاء الأنكاد هو من الملاحم الغيبية القرآنية فهم على استكبارهم وإصرارهم لإبطال حجة القرآن لم يؤمنوا ولو على ظاهر الحال تكذيباً لملحمة قرآنية، وكانوا أشخاصاً خصوصاً عُرفوا بين الجموع بالكفر الصامد والجحود العامد.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾:

إن تأثير الإنذار منحسر عنهم، منحصر في ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾: مَن إذا ذكِّروا تذكروا دون عناد، وهم المتقون الذين إذا وُقوا عن الشر اتقوه، فهم الأحياء بروح الذكر والتقوى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٣]، وقد يلمح المضيُّ في «اتبع... وخشي» لسابق هذه الحالة السابغة فيهم قبل الذكر فهم مهما كانوا قبل الذكر من الغافلين، ولا سيما إذ ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ من قبل ولا أنذروا، هم أنفسهم، ولكن الغفلة حيث كانت قاصرة دون تقصير، فكانوا يفتشون عن ذكر حتى يتذكروا، أم -

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.
(٣) سورة يس، الآية: ٧٠.